

04/02/2020 كتاباتكم

عبدالرزاق دحنون: أجرنا يا عمر بن عبدالعزيز



”إن أخلاق الناس تتبع سلوك الحاكم, فإن كان عادلاً مستقيماً عدلوا واستقاموا وإن جار وسرق جاروا وسرقوا“
كونفوشيوس

نزع -نحن أهل إدلب- أن بلداتنا الصغيرة المتناثرة على الهضاب والمرتفعات الكلسية والسهول الخصبة بتربتها الحمراء على تخوم البادية في الشمال الغربي من سورية هي سرّة بلاد الشام, والوارثة لملاحة الحضارات القديمة في شرقنا العربي, على الرغم من إهمال ياقوت الحموي ذكر أكثرها في كتابه العظيم "معجم البلدان", لأنها لم تكن في أيامه إلا قرى صغيرة, في حين كان بعضها مشهوراً مثل معرة النعمان بلدة "فيلسوف المعرة" أحمد بن عبد الله سليمان التنوخي المكنى بأبي العلاء المعري, ونحن نفتخر بأن تربتنا تحتضن رفات ذلك الإنسان الجليل. وعلى بُعد بضعة كيلو مترات إلى الشرق من معرة النعمان يرقد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز في "دير شرقي" والناس تظن قبره في دمشق. ما الذي أتى به إلي هذه الناحية النائية؟ هل كان يتشبه بقربته عمر بن الخطاب -إن التشبه بالكرام حميد-؟ والذي كان أيام خلافته يضع إزاراً فيه اثنتا عشرة رقعة, وكان في عام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسود جلده, ويقول لنفسه: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع.

يكتب الروائي السوداني الطيب صالح عند زيارته هذا الضريح في خريف سنة 1991 في مقال منشور: إن عمر بن عبد العزيز كان عائداً من غزوة في بلاد الروم, فخرج على صديقه القس في هذا الدير, وكانت بينه وبين القسيس



مودة، فمات مقتولاً بالسم علي يد بني أمية. وفي رواية أنه ملّ العيش بدمشق، فجاء وأقام في هذه الناحية إلى أن مات. عند قدميه ترقد زوجته الوفية التي عانت معه شظف العيش، بعد نعمة ولين. ابنة الخليفة وأخت الخلفاء، فاطمة ابنة عبد الملك بن مروان. لقد أوصلت أن تدفن معه عند قدميه، فكان لها ما أرادت. ولا أدري أي الأمرين أدعى للاستعبار والأسى، رقدة ذلك الإنسان العظيم في ذلك المكان النائي أم مشاهدة زوجته الصالحة وهي تتشبث به في مماته كما تشبثت به في حياته، لقد خيرها حين ولي الخلافة وخلع عنه حلية الترف، بين حياة الزهد والتقشف أو الفراق، فاخترت العيش معه.

مع اشتداد الصراع بين البشر علي امتداد كوكب الأرض تشتد الحاجة إلى استئثار أمجاد العدل. وأحسب أن الوقت قد حان؛ وأن لهذا الفجر المرتقب الذي مضي عليه أكثر من ألف عام أن يظهر. وقد أجمع البشر شرقاً وغرباً أن "الحضارة الإسلامية" المثقفة أقامت إمبراطورية هي الأوسع بين إمبراطوريات العالم القديم، امتدت من ساحل الأطلسي إلى تخوم الصين والقليل منا ومن غيرنا يعرف أن كفاحننا في سبيل العدل يرجع إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام، وأننا أنشأنا على امتداد هذه السنين محطات كان الناس يتوقفون عندها حتى يلتقطوا أنفاسهم ويستريحوا من عناء الكر والفر في هذه الساحة غير المتناهية من صراع العصور.

المتفق عليه أن الخلفاء الأوائل لم يكونوا طغاة، وأن تسميتهم خلفاء لا ملوكاً كان لتمييزهم عن الغرارات السائدة في زمانهم من الأكاسرة والقيصرة، وأنهم لهذا السبب لم يؤسسوا دولتهم علي ولاية العهد. وقدموا مثلاً على الحاكم الذي يأبى التمايز عن رعاياه فيعيش عيشة أدني واحد منهم متبعاً في ذلك قاعدة شرعها بأنفسهم تجعل الزهد في الحياة إلزاماً للحاكم دون المحكوم. ولم تعرف حقبتهم القصور المترفة مع أنهم كانوا يحكمون دولة شاسعة. كما لم يتمتعوا بامتيازات الملوك فلم يكن لهم بلاط وإنما كان مقرهم المسجد، وكان اللقب الوحيد الذي رضوا به هو أمير المؤمنين دون سيدي أو مولاي أو صاحب الجلالة أو صاحب العظمة أو ملك الملوك. ولم تكن لهم حاشية ولا حرس ولا مرافقون. وحين يجلسون للعمل الرسمي في المسجد لا يغلق باب المسجد ولا يقف عليه حاجب. وقد يكون أحدهم يزاوّل عمله ومعه كاتبه أو أعوانه وفي زاوية أخرى من المسجد رجل يصلي غير عابئ بالخليفة، فالمسجد متعدد الوظائف.

كانت مهمة عمر بن عبد العزيز أصعب وأعقد من مهمة الخلفاء الراشدين السابقين لأنه جاء وقد تسلط الملوك علي العرب، وخاضوا في دمائهم، وثبتت ولاية العهد وفردية الحاكم، واحتدم الطغيان مع الوليد بن عبد الملك الذي وصفه المؤرخون بأنه أول من تجبر في نفسه، إذ كان الجبابرة من آبائه بمثابة تمهيد له قبل أن يأخذ الطغيان مداه الأخير علي يديه. استعرض عمر بن عبد العزيز الأوضاع في الدولة الأموية قبل خلافته، وكان الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرّة بن شريك بمصر. فقال: اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس.

فديو ضريح عمر بن عبدالعزيز المحترق:

<https://www.youtube.com/watch?v=iUCJlhY-qw8>